مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية

تاريخ الارسال:2019/04/22 **تاريخ النشر:**

تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة في التعليم العالي

سبعون سعيد **بوحنيكة نذير**

جامعة البليدة 2 **جامعة الشادلي بن جديد**

ملخص

تعرف تكنولوجيات الإعلام والاتصال انتشارا واسعا في العديد من القطاعات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. والمؤسسة الجامعية واحدة من المؤسسات الهامة التي تجمع بين الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. و ينتظر من الجامعة أن يكون لها دور في التنمية الاقتصادية و النهضة الثقافية والتوازن الاجتماعي . في هذا السياق تسعى المؤسسة الجامعية إلى أن تقدم التكوين الفعال لأداء الدور الذي وجدت من أجله على أكمل وجه. في هذا السياق، فإن اللجوء إلى تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة من شأنه أن يساهم في دفع الجامعة إلى تقديم تكوين وتعليم من شأنهما أن يحققان هدفا مزدوجا. يتمثل الأول في تخفيف الضغط الجماهيري عليها، أما الثاني فيتمثل في عصرنة التعليم الجامعي . في هذا الإطار، نسعى في هذه المساهمة المتواضعة إلى أن نتوقف عند احد جوانب إدخال تكنولوجيات الإعلام والاتصال إلى الجامعة من خلال ما يعرف بالتكوين عن بعد أو التكوين الافتراضي لنحاول ان نتعرف على بعض مميزات هذا التكوين ومحدداته من منظور سوسيولوجي ، بالإضافة الى عرض بعض الحدود التي يواجهها في حركيته تلك.

كلمات دالة : الإعلام، الاتصال، التنمية الاقتصادية، التعليم العالي.

Résumé

La dimension virtuelle prend une place réelle dans les différents domaines de l'activité socio-économique. Des secteurs entiers passent au virtuel et au numérique. La gestion électronique devient un indicateur de la modernisation. Dans cet ordre d'idées, l'enseignement supérieur et l'université ne sont pas en reste. Quelles sont les caractéristiques fondamentales de l'enseignement universitaire numérique, appelé enseignement ou formation à distance? Que va-t-il changer? Créera-t-il une nouvelle dynamique qui dépassera-t-elle l'espace intra muros universitaire pour impacter l'ensemble de la société ? Ou bien, cet enseignement à distance tant vanté par ses défenseurs n'est en fin de compte qu'un mirage qui finira par céder la place à un autre mirage ?

Nous essayerons dans cette modeste contribution de faire une lecture sociologique du phénomène de l'enseignement universitaire à distance, en mettant ses fonctions sociales et les réserves dont il est l'objet.

Mots clés : information, communication, développement économique, enseignement supérieur

مقدمة

يتميز الواقع العالمي الحالي بانتشار واسع جدا لتكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة، فلا يخلو أي مجتمع من تواجد هذه التكنولوجيات. صحيح أن مستوى التواجد لهذه التكنولوجيات وانتشارها واستعمالها يختلف بين المجتمعات المتطورة، التي يمكن القول أنها وصلت إلى مرحلة إشباع واكتفاء ذاتي، وتسعى إلى ربح رهان المنافسة التكنولوجية في اقتصاد متميز بظاهرة عولمة لم يسبق لها مثيل، والمجتمعات غير المتطورة التي لا تزال في حالة تبعية تكنولوجية وفي مستويات استهلاك لهذه التكنولوجيات يمكن وصفها بعدم اكتفاء وإشباع تام.

من جهة أخرى، فان تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة مست كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فلم يعد يخلو مجال أو فضاء اجتماعي من هذه التكنولوجيات الجديدة. وبالعكس، فإن الرهان الحالي هو كسب "المعركة التكنولوجية" أو الرقمية.

وأصبح من مؤشرات التقدم الحضاري والتطور الاجتماعي هو مدى إدخال هذه التكنولوجيات أو الرقمنة لدى هذا المجتمع أو ذاك. لقد أدت تكنولوجيات الإعلام والاتصال إلى إحداث تغييرات عميقة في نمط حياتنا وعلاقتنا بالمحيط الطبيعي أو الاجتماعي. ويتميز الوقت الحالي بانتشار نوع من الثقافة الرقمية التي كان لها تأثير في تطور النظم التربوية والتعليمية في كل أطوارها. مما أدى إلى إدخال برامج وتوصيات بيداغوجية جديدة لها علاقة بهذه الثقافة الرقمية. بحيث تسعى العديد من الدول إلى المطابقة بين البرامج التعليمية وهذه التكنولوجيات. وفي هذا السياق فإن من إحدى الكفاءات التي يلزم الفاعلون في الأنظمة التعليمية أن يحوزوا عليها هي التحكم في تكنولوجيات الإعلام والاتصال. وأمام هذا الصعود القوي للتكنولوجيات و الوعي الرقمي المتزايد، أضحى من الأهمية بمكان أن يعطى للتكوين في هذه التكنولوجيات للمورد البشري أهمية. لأن الاهتمام بعامل التكوين لهو من الشروط الأساسية لنجاح المشروع الرقمي في الاتجاه السليم، والذي من شانه أن يؤدي إلى الرفع من مساهمة الرقمنة في التنمية الاقتصادية. هذه الرقمنة التي لا تصبح مصدر قلق، بل عامل ارتياح في جميع الميادين. إذ علينا أن نشيرالى أن ولوج هذه التكنولوجيات في الفضاءات الاجتماعية أدى إلى انتشار العديد من المظاهر والاختلالات الوظيفية التي بدأت بطرح تساؤلات حول جدوى هذه الرقمنة. وفي هذا الإطار، فإن فضاءات التعليم والتكوين وفي كل مستوياتها لها دور كبير في البحث عن فعالية استعمال تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة، لكن هذه الفعالية لا يمكن ضمانها إلا إذا تشكل هناك وعي لدى المقررين وكذا لدى فئات واسعة من الفئات الاجتماعية بضرورة وضع إستراتيجية فعالة تدمج هذه التكنولوجيات، سيما الانترنت في محاولة لبعث قطاع التعليم في كل مستوياته ولما لا المساهمة في إيجاد آليات جديدة تؤدي إلى تحسين أدائه، والسعي من خلال ذلك إلى المساهمة في التنمية الاقتصادية في البلاد، سيما وان الواقع الاقتصادي الوطني الحالي يعرف تعقيدات وصعوبات بسبب اتكاله فقط على المورد المالي النفطي. إن الاستثمار في التعليم في كل مستوياته أضحى من الأهمية القصوى من اجل السعي إلى بعث الاقتصاد الوطني وإخراجه من التبعية النفطية. وفي هذا السياق يمكن لهذه التكنولوجيات أن تساهم في نهضة تعليمية إن صحت العبارة. وإن تم حسن استغلال هذا الاستعمال للرقمنة. وسنحاول في هذه المداخلة أن نبين مميزات استعمال تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة، سيما في النظام التعليمي الجامعي، على ماذا يرتكز هذا الاستعمال، ما هي الآفاق التي يصبو إليها، وما هي حدود هذا الاستعمال؟

ولوج تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة لفضاء التكوين الجامعي

لقد أصبح إدخال تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة إلى الجامعة من إحدى المطالب، بل من المكتسبات الأساسية في كل دول العالم. بحيث أن من مؤشرات مجتمعات المعرفة نجد مدى الربط بشبكات الانترنت من طرف الفاعلين داخل الفضاء

الاجتماعي. وهذا ما من شانه أن يؤدي إلى التغيير في التمثلات والممارسات في هذا الفضاء : "لم تعد هناك ضرورة إلى الاستدلال على أن الفضاء الجامعي عرف تحولا عن طريق الرقمي... فبالنسبة إلى الباحث في علم الاجتماع ميشال فيفيوركا، فان الأمر يتعلق بضرورة أو حتمية رقمية لأنه يعتبر أن العلوم الإنسانية والاجتماعية... عليها أن تأخذ نصيبها بصفة كاملة في الأعمال العلمية عندما يتعلق الأمر بوضعيات تتعلق بتكنولوجيات الإعلام والاتصال من خلال استغلال المعطيات والبيانات الناتجة عن ملاحظة الإجراءات الرقمية. أما برونودو فوشال فيرى من جهته انه يتعين علينا أن نتساءل "كيف يحول الرقمي أماكن المعرفة" ؟ وإن كان يعترف بأنه على المستوى الإداري فإن الأمور عرفت تقدما، لكن على المستوى البيداغوجي فإنها تتقدم ببطء"**1**. كما نلاحظ من هذا الاقتباس، فإنه في بلد متطور مثل فرنسا، فان الرهان الرقمي في التعليم الجامعي لم يتم كسبه نهائيا، بل لا تزال هناك بعض العقبات الموضوعية، سيما على المستوى البيداغوجي. ويمكن إيعاز مثل هذه العقبات إلى حداثة الإجراءات الرقمية. إذ أن اللجوء إلى التعليم الرقمي أو اللجوء إلى تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة هو حديث العهد مقابل التعليم الكلاسيكي الذي هو ساريا منذ قرون ! والرهان الأساسي بالنسبة إلى هذا التعليم الرقمي هو رهان سوسيولوجي بالأساس ويتمثل في إقامة ضمير أو وعي جمعي بشأنه. أي جعله في مستوى تمثلات أفراد المجتمع، من خلال تبيان جديته في إعطاء تكوين قاعدي يحافظ على كل مقومات التعليم الكلاسيكي، ولا يختزل في مجرد بعد تقني بحت خال من الأبعاد الإنسانية مثلما قام عليها التعليم الكلاسيكي. بصيغة أخرى، لابد من وجود دوافع اجتماعية قوية لظهور التعليم الجامعي عن طريق الانترنت أو الرقمي بحيث تجعل هذه الدوافع الاجتماعية من هذا النوع من التعليم الرقمي الجامعي مطلبا اجتماعيا بامتياز. وبالعودة إلى الوراء، فيمكننا أن نقول إن الانترنت ذاته كان بمثابة دافع اجتماعي قوي أدى إلى انتشاره وإنتاجه وضمان إعادة إنتاجه : "إن الانترنت فعلا هي مطلب اجتماعي بكل مدلولاته، سواء في بيئتها الأولى التي أفرزتها أو في مراحل تطورها أو مرحلتها الأخيرة في انتشارها واستيعابها لعناصر واليات المجتمع الجديد في عالمنا البشري. ولقد نشأ هذا المطلب وتجسد بثقله المعلوماتي الكبير من وجود بعض جوانب التماثل بين هذه الشبكة العالمية وبين طبيعة الاجتماع البشري... وإذا ما رجعنا إلى بداية احتضان مشروع شبكة الشبكات ونظرنا في ظروف انبثاقها كآلية فرضت متطلباتها الاجتماعية لرأينا انه منذ الفترات الأولى كانت هناك دواع أساسية تضرب بجذورها في عمق المقصد الاجتماعي للتركيبة الحضارية البشرية... بهذه الوتيرة عينها في تركيبة جماعات الكائن البشري كان واضحا أن ظروف تبني الظاهرة المعلوماتية في منظومتها البشرية العالمية إنما هي ظروف تتأسس بدرجة مباشرة على الدوافع الاجتماعية البحتة. وبالتالي يمكن القول إن الظرف الاجتماعي بعمومه هو الوعاء الذي حوى اللب التقني والمشروع العلمي التطبيقي لتقنية المعلومات الانترنتية على وجه الخصوص"**2**. هناك إذا نوع من

الحتمية الاجتماعية في ظهور الانترنت وانتشاره، وبهذا يكون البعد السوسيولوجي بمثابة متغير هام في انطلاق هذه التكنولوجيات للإعلام والاتصال. وفي هذا السياق فان ما يعرف بالتعليم الالكتروني أو التعليم عن بعد أو الجامعة الافتراضية تندرج ضمن هذه الحتمية الاجتماعية التي جعلتها تعرف وجودها منذ فترة ليست ببعيدة عنا كرونولوجيا. ونجم عن هذه الحتمية الاجتماعية إقحام مختلف دعائم الانترنت في التعليم الجامعي كحتمية تعليمية اجتماعية في الدول المتطورة : "وأمكن الاستفادة من مختلف تقنيات الانترنت في العملية التعليمية الالكترونية، كأدوات الاتصال والواقع الافتراضي ومحركات البحث ومواقع الجامعات والمعاهد والمكتبات العلمية والمعرفية بأنواعها. وتعتبر شبكة الويب العالمية هي التي أعطت للتعليم الالكتروني بعدا علميا فريدا من نوعه فقفزت بالتقنية التعليمية إلى نموذج الفصل الافتراضي المعتمد كليا على الانترنت. خاصة بواسطة تقنيات البرامج المتقدمة جدا ثلاثية الإبعاد. واستخدام الفصل الافتراضي بتقنياته المتنوعة، والمكتبة الافتراضية والمعمل والمختبر الافتراضي... وعلى الرغم من ذلك فان العامل الاجتماعي الطبيعي في التعليم مهم جدا لأفراد المجتمع،لذلك تمحورت حوله الصعوبات التي تحد من تقدم هذا النوع من التعليم وتحقيق مستهدفاته العليا"3 .

ونحاول فيما يأتي أن نقدم تحديدا للتعليم الالكتروني حتى نضيف بعض الخصائص والمميزات عليه علنا بذلك نتعرف على المحددات التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى نشأته وتواجده.

التعليم الالكتروني أو عن بعد : محاولة تحديد

نعود مرة أخرى إلى الدكتور رحومة علي محمد لمحاولة إعطاء تحديد لهذا النوع من التعليم، حيث نرى أن ما قام به في المؤلف الذي اشرنا إليه هو بمثابة إسهام جاد لتعريف القارئ العربي بشبكة الانترنت باعتبارها منظومة تقنية اجتماعية مست مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

أما التحديد الذي قدمه الدكتور رحومة فجاء على النحو الآتي : "من أهم تعريفات التعليم الالكتروني أنه 'وسيلة للتعليم تتضمن آليات اتصال جديدة : شبكات الحواسيب، منافذ المحتويات (Content ports)، أدوات البحث وفصول تعليمه عبر الويب. إن التعليم الالكتروني يتميز بالسرعة،والتحويلات التكنولوجية (Transformations)، وتفاعلات إنسانية وسائطية'. هذا التعريف يجسد واقع التعليم الالكتروني عبر شبكة الشبكات، بما تقدمه المنظومة التقنية بأبعادها المختلفة من حركة اجتماعية متميزة، ومشجعة للمستخدمين على اختلاف مستوياتهم العلمية وتخصصاتهم العلمية، بأن يتفاعلوا مع ما تقدمه من خدمات تعليمية جذابة، من حيث السهولة 4. نستشف من خلال التعريف الذي وضعه علي رحومة مجموعة من العناصر المكونة للتعليم الالكتروني

يترأسها العامل التقني، ثم نجد العامل الاجتماعي، وهناك عوامل نفسية معنوية واقتصادية، مما يجعل هذا النوع من التعليم بمثابة منظومة أو بنية تتفاعل ضمنها عدة عوامل حتى يسير الكل ألا وهو التعليم عن بعد. بحيث لا يمكن تفضيل عامل على آخر وإلا أدى ذلك إلى اختلال وظيفي في تسيير التعليم الالكتروني. وفي التعليم الالكتروني وبخصوصه يمكن أن نقدم تحديدا آخر للباحثة مونى لعروسي من جامعة ليل بفرنسا للعلوم والتكنولوجيا على النحو الآتي : "إن عبارة التعليم الالكتروني استعملت لأول مرة من طرف ستيفن داونز الذي كتب مقالا في موقع مجلة التعليم الالكتروني تحت عنوان التعليم الالكتروني 0.2. ويمكن لنا أن نعرف التعليم الالكتروني 0.2 بأنه استعمال للأدوات الجديدة للويب 0.2 ضمن سيرورة التعلم... إن التعليم الالكتروني 0.2 هو حالة ذهنية بيداغوجية جديدة، والتي ستسمح باستعمال بعض الأدوات التكنولوجية البسيطة التي يتم الاستعانة بها، بإعادة إنشاء عن بعد محيط أو بيئة بيداغوجية واجتماعية شبيهة بمحيط أو بيئة القسم التقليدي، إن هذا البراديغم الجديد يعيد الإعلام الآلي إلى مكانه الحقيقي، أي مجرد أداة في خدمة البيداغوجيا.

إن هذا الإعلام الآلي ليس مختلفا عن اللوح الأسود والطبشور، ولكن الجهد سيكون من الآن فصاعدا نحو المادة التي سيتم تقديمها ونوعية نقل المعارف من خلال تسهيل التفاعلات بين المتعلمين"5 . تشير الباحثة مونى لعروسي إلى متغير هام في تحديدها ويتعلق الأمر بالاستعدادات الذهنية كخاصية أو ميزة من مميزات التكوين الالكتروني، بحيث لا يكفي أن تتوفر الدعائم التكنولوجية لانطلاق هذا النوع من التعليم. فبالإضافة إلى العوامل الاجتماعية هناك العامل النفساني المتمثل في العامل الذهني، وبذلك تكون العوامل النفسية والاجتماعية كعوامل أساسية لها وزنها في المعادلة، وبالتالي فان الاعتقاد الذي يعطي الأولوية لتطور العوامل التكنولوجية يجد أمامه العوامل الإنسانية الاجتماعية كعوامل محددة أساسا. كما نلاحظ أن التعليم الالكتروني يحافظ على أهم مقوم للتعليم ألا وهو المقوم البيداغوجي كمتغير ثابت. والتغير يكون فقط في الأداة الرئيسية لنقل المعارف، حيث تعوض الألواح والطبشور !

في هذا السياق، نكون أمام العديد من الأطروحات والمواقف حيال هذا التكوين عن بعد أو التكوين الالكتروني. أهم هذه الأطروحات هو أن هناك اختلاف في التعلم والتحصيل لدى الطلبة مما هو عليه الأمر في التكوين الكلاسيكي أو التكوين الحضوري : "هناك العديد ممن يدعمون الفكرة أن الطلبة الحاليين يتعلمون بصفة مختلفة. إنهم يستعملون كميات من المعلومات بتمثلات أبواب متعددة وأرضيات متعددة. إنهم يتعلمون أكثر من خلال التفاعل والتجربة منها من الدلائل والكتب. في حين يذهب باحثون آخرون أن المتعلمين عن بعد تنقصهم المهارات والكفاءات الأكاديمية وإن عاشوا في التكنولوجيا منذ فترة طويلة من

حياتهم. إنهم يبحرون بسهولة في الويب من أجل إيجاد المعلومة الجيدة لكنهم لا يملكون الكفاءات أو السعة الضرورية من أجل نقد المصدر الذي تم العثور عليه أو تقييمه"6.

إضافة إلى هذا، فان التعليم الالكتروني يؤدي إلى وجود نموذجين يفصل بينهما الانتشار الواسع للانترنت، فهناك نموذج الفصل الممتد ونموذج الدراسة المستقلة، وهذا النموذج الثاني هو الذي نعرفه اليوم والمعمول به في كل فضاءات التعليم عن بعد : « يوجد نموذجان اثنان لما يعرف بالتعليم عن بعد (Distance Learning) وبخاصة قبل انتشار استخدام تقنيات الانترنت. الأول هو نموذج الفصل الممتد (The extended class model) ، والثاني هو نموذج الدراسة المستقلة (The independent study model). فالنموذج الأول هو امتداد للفصل التقليدي الطبيعي (physical classroom) ، وذلك عن طريق استخدام تكنولوجيا الاتصالات الهاتفية (telecommunications technology). وهي طريقة كانت متبعة بكثافة في العديد من المؤسسات التعليمية، وبخاصة في الجامعات الأمريكية وبعض الدول الغربية مثل بريطانيا وغيرها، قبل استخدام الانترنت وإمكانياتها المتقدمة. في هذا النموذج يشارك الطلبة في فصل تقليدي يحضره الطلبة شخصيا (physically) ويستمعون للمحاضرات ويشاهدون تسجيلا مرئيا لما يشاهده الطلبة العاديون من تسجيلات مرئية ووسائل إيضاح باستخدام تقنية الإرسال الهاتفي... ويكون دور الطلبة المنتسبين عن بعد هو دور التلقي فحسب.

أما النموذج الثاني، فهو لا يرتبط بوقت أو مكان محددين، بحيث يعطي للطلبة الأدوات التي يحتاجونها بشكل مستقل... ويكون الاتصال بين الطلبة والمدرسين عن طريق استخدام التلفون او البريد الصوتي (voice mail) وكذلك ما يعرف بمؤتمر الحاسوب (Computer conference) وأيضا البريد الالكتروني (Electronic mail)... ويلاحظ في هذين النموذجين قلة حصول التعليم الالكتروني الفعلي، رغم أنهما يعتبران كبدايات لتطويره. فلا يوجد على سبيل المثال التفاعل الاجتماعي الحقيقي للعملية التعليمية الالكترونية، مثل قلة استخدام الحاسوب وعدم حصول المشاركة الفعلية في العملية بحيث يكتفي الطالب بدور المتلقي، المستمع" 7. يتضح إذن أن التكوين الالكتروني هو عملية تفاعل بين الأفراد المنتسبين إليه، وهذا ما يدل على البعد الاجتماعي. بحيث أن الرهان لا يكون محددا على أساس الأداة التقنية. فالتكوين الالكتروني مثلما أشارت إلى ذلك لعروسي مونى هو بعد بيداغوجي، وبالتالي فان الأداة الالكترونية هي عامل مادي أساسي، لكنه عامل محدد بدرجة اقل من العامل الأساسي. ومن هنا تبدو ضرورة الاهتمام بالجانب السوسيولوجي في علاقة إنسانية (العلاقة البيداغوجية) التي تبدو مؤطرة من بداياتها إلى نهاياتها،

أي من المنبع إلى المصب بالعامل التكنولوجي. إذ لا يعني التكوين عن بعد ، بعد العلاقة الإنسانية وغيابها. بل هناك حضور قوي للعامل الإنساني. بحيث ان التفاعل والتداخل الإنساني هو العامل الحامل للتكوين عن بعد !

إن من بين الجوانب البيداغوجية لانتشار التعليم الالكتروني هو انه سمح لرد نوع من الاعتبار سيما للتعليم الجامعي. بحيث سمح لفئات واسعة ومن أصول اجتماعية ومن تخصصات مختلفة بالالتحاق بالتكوين الجامعي وهذا بعد انقطاع مدة سنوات، وهذه العودة أدت إلى خلق نوع من الحركية والاهتمام اللذين بدءا يغيبان عن الجامعة الحضورية التي عرفت التحاق أعداد هائلة من الناجحين في امتحانات البكالوريا (Massification). وهناك اعتراف دولي على أن الجامعات الكلاسيكية تعرف صعوبات جمة سيما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي لم يسلم منها حتى العديد من الدول المتطورة. فهاهي الجوانب المالية تلقي بضلالها في الميزانيات المخصصة لسير الجامعات مما جعل التعليم الالكتروني محل اهتمام العديد من الدول لما له من إمكانية توفير مستويات من الميزانية، بالإضافة إلى الاقتصاد في الاستثمار في المنشآت التعليمية لان الحضور الجسدي للأفراد غير ضروري. مما يؤدي إلى التقليل من الضغوط في الفضاءات الجامعية.

مزايا التعليم الالكتروني (عن بعد) وعيوبه

أشرنا منذ قليل إلى أن التعليم الالكتروني سمح لفئات اجتماعية مختلفة ومن تخصصات مختلفة بمواصلة دراساتهم، حيث يرى رحومة علي محمد : "إن التعليم عن بعد يفيد كثيرا في ردم الفجوة العلمية بين فئات المجتمع، وبخاصة لدى العاملين الذين يرغبون في التعليم ولا يجدون وقتا مناسبا لذلك، كذلك الأفراد الذين لم يحصلوا على قدر مناسب من التعليم في صباهم أو شبابهم. وفي بعض الدول مثل الدول العربية، يمكن للتعليم عن بعد أن يسهم بقوة في رفع المستوى التعليمي والعلمي للإناث اللاتي يلزمن بيوتهن بسبب التزاماتهن المنزلية... فضلا عن أن التعليم عن بعد يتيح فرص استعمال الانترنت بمختلف خدماتها، في التعلم، والبحث العلمي،ومشاركة المتعلمين والمتخصصين والعلماء من مختلف أرجاء المعمورة، الأمر الذي يرفع من مستوى التفكير وكفاءة المهارات المعلوماتية لأفراد المجتمع"8. بالفعل، هذا ما لاحظناه ميدانيا، عندما تم فتح ماستر في التكوين عن بعد في جامعة البليدة 2 ، سنة 2016-2017، حيث كان هناك إقبال كبير لفئات اجتماعية عديدة ومن تخصصات متنوعة، ولاحظنا أن نسبة التخلي عن متابعة هذا النوع من التكوين كانت ضعيفة جدا وبقي عدد المسجلين تقريبا نفسه، ثم إن نسبة النجاح تدل على مدى الاهتمام والدافعية التي ميزت هذه الدفعة من المسجلين في هذا التكوين في جامعة البليدة 2.

ومن وجهة عامة، فان التكوين عن بعد في الوطن العربي من شأنه أن يعيد توجيه تمثلات استعمال الانترنت في هذا الفضاء العربي الذي يبقى محصورا عموما على استعمال يطغى عليه الجانب الترفيهي.

ومن جهة أخرى، فان التعليم الالكتروني هو من بين الحلول التي يتم تصورها وتقديمها من اجل مواجهة الكثافة الطلابية التي أصبحت تميز جامعات العالم. بالإضافة إلى إيجاد حلول بخصوص العقبات الجغرافية والزمانية : "يمكن أن نعتبر بروز البيداغوجيا الجامعية الرقمية على انه إجابة للتحديات التي يطرحها الالتحاق الكثيف للطلبة بها. يسمح الوسيط الرقمي بالحصول على معارف بأقل ضغوط على المستوى الجغرافي أو على مستوى الوقت. انه يشكل بذلك مسهلا تقنيا يجعل التكوين في متناول طلبة يعرفون تنوعا من وجهة نظر وضعياتهم و صعوباتهم. كما انه يساعد الابتكار البيداغوجي من خلال ما يسمح به بفضل بنيته ذاتها، بإعادة التفكير في العلاقة بين الأستاذ والمتعلم"9. و هذا ما يجعل من التعليم الالكتروني مستوى يضمن أحد المكاسب الأساسية في العديد من المجتمعات الحالية والذي يتمثل في مصطلح ديمقراطية التعليم. فإذا كانت ديمقراطية التعليم قد عرفت مسارات عديدة وصلت إلى حد إعادة النظر فيها لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى. فربما مع التعليم عن بعد فان ثمة حياة جديدة لديمقراطية التعليم، على الأقل على المستوى النظري، حيث نحضر مع التكوين الالكتروني إلى توسيع القاعدة الاجتماعية لطالبي هذا النوع من التكوين. هذا ما يؤدي إلى طرح أسئلة يمكن اعتمادها كمنطلقات لفرضيات حول البعد الاجتماعي والمساواة من اجل الحصول على المعارف بغض النظر عن الأصول الاجتماعية والثقافية التي لطالما صنعت الفارق في التحصيل الدراسي وتعطي توجهات واتجاهات لآليات الانتقال البيداغوجي.

وبهذا يمكن أن ندرك التعليم عن بعد بمثابة فرصة أخيرة للفئات الاجتماعية الهشة اقتصاديا وثقافيا للالتحاق بمستويات تعليمية متقدمة في السلم الجامعي. وهذا ما من شأنه أن يساهم في مسعى الانسجام الاجتماعي. يمكن أن نقول إذن أن آفاق التكوين عن بعد من شانها أن تؤدي إلى توسيع الالتحاق لفئات واسعة ومختلفة في ما تحمله من خلفيات اجتماعية واقتصادية وثقافية، أي كما يسميه علم الاجتماع التربوي برأسمال.

لكن، وعلى الرغم من أن الاهتمام بهذا النوع من التعليم في تزايد مستمر، سواء على مستوى المؤسسات الحكومية أو على مستوى الطلب الاجتماعي، إلا أن ثمة عراقيل وحدود تواجه سير هذا الإجراء التعليمي. فمن هذه العوائق وعيوبه مسالة المردودية. فهل تعرف المردودية التعليمية تحسنا بما يسمح بتجاوز حالات الضعف التي أصبحت تميز أكثر فأكثر النظام التعليمي الجامعي الحضوري نتيجة تواجد أعداد هائلة من الملتحقين به وأمام قلة هياكل الاستقبال وتراجع حصص الميزانية المخصصة للتعليم العالي

حتى في الدول المتطورة – بريطانيا وفرنسا على سبيل المثال ؟ "وبصفة عامة، على الرغم من انتشار التعليم والتعلم عن بعد في الكثير من الدول، تقدمه عشرات الجامعات والمؤسسات التعليمية والتدريبية بخاصة في أمريكا وأوروبا وبعض الدول الأخرى منها الأوروبية. فان هذا النوع من التعليم يواجه كثيرا من الصعوبات والعوائق التي تحد من فعاليته ومستهدفاته... أجريت عدة دراسات تؤكد هذه الحقيقة، وتشكو كثير من الجامعات والمؤسسات المعنية بالتعليم والتدريب عن بعد، من قلة حصولها على نتائج جيدة لبرامجها التعليمية الالكترونية، ولم تحقق مستهدفاتها بالمستوى المتوقع والمطلوب"10. فمسالة المردود تطرح بحدة مع هذا النوع من التعليم. نظرا إلى طبيعة العلاقة البيداغوجية التي تبقى علاقة افتراضية، قد لا تصعد إلى معرفة الواقع الفعلي لأسباب العوائق التي قد يواجهها الطالب "الافتراضي". وهذا الجانب العلائقي والإنساني يصبح من المتغيرات التفسيرية لمسالة المردودية والتحصيل : "ويمكن حصر حقيقة العوائق المعنية في التعليم عن بعد إلى عدم الاهتمام كثيرا بتحمل المسؤولية الشخصية والاعتماد على النفس في التعلم والمثابرة... ويفضلون التعلم عن طريق التفاعل الاجتماعي الطبيعي المباشر، والرغبة في التعامل مع المعلمين والخبراء المتخصصين مباشرة بشكل طبيعي، فضلا عن عدم الارتياح للتقنيات الجديدة والخوف من ضياع المعلومات والاختراق المعلوماتي"11. وان كان هناك من يرى ان اللجوء إلى استعمال تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة في التعليم له نتيجة ايجابية على مستوى التحصيل : "لا يوجد إجماع مسبقا في صفوف الباحثين فيما يتعلق بالعلاقة القائمة بين تكنولوجيات الإعلام والاتصال والمردود الأكاديمي. هكذا تم الاستدلال في مرات عديدة من طرف الباحثين أن الطالب غالبا ما يكون تعلمه أفضل بفضل تكنولوجيات الإعلام والاتصال، وبفضل التكوين عن بعد مما هو عليه في السياق الكلاسيكي للحضوري في قاعة التدريس "الطبيعية وغير الافتراضية". على سبيل المثال ديجون وفورسيي (2004) ، كارسنتي (2003، 2004 و2006)، كارسنتي وآخرون (2001) ، فاسكاز – عباد وآخرون (2003). كل هؤلاء يشيرون إلى غياب الإجماع12". ومن جهة أخرى يرى البعض أن التكوين عن بعد لم يمنع التسرب والإخفاق الدراسيين، من خلال ارتفاع نسب عدم إكمال التعليم إلى نهايته : "على سبيل المثال الدراسة التي قام بها غوتيي في 2001، حول التكوين عن بعد لصالح المرصد من اجل التكوين والتشغيل والمهن بفرنسا، حيث يبين انه على الرغم من عدم توفر الأرقام أو قلتها أو عدم التصريح بها، فان مختلف المصادر تتفق حول معدل التخلي عن مواصلة التعليم عن بعد يقدر ب 80 % (من 70 إلى 90 %). بالنسبة إلى كل المسجلين وفي كل المستويات، وفي كل التخصصات (الأنظمة الداخلية، الجامعية والمهنية...) (كارسنتي 2006). إن نتائج بعض الجامعات الكبرى التي تتقدم على أنها متخصصة في التكوين عن بعد تثير المخاوف، ففي إحدى الجامعات التايلاندية وعلى فترة تمتد على خمس سنوات، وصل معدل إكمال الدراسات إلى 17 % في حين

وصل بجامعة انديرا غاندي بالهند إلى 22 % وحتى في جامعة بريتيش اوين، تم تسجيل معدل إكمال الدراسة ب 45 % على فترة ثمان سنوات، و48 % خلال عشر سنوات كما أشار إلى ذلك كارسنتي"13.

على كل حال، ومثلما اشرنا إلى ذلك سابقا فان تجربة جامعة البليدة 2 في التعليم عن بعد في الماستر، لم تعرف معدل تخلي مرتفع عن التكوين لمدة سنتين.

ويبقى أن التكوين عن بعد كمنظومة تقنية اجتماعية لها من المميزات والخصائص مما يجعلها تمتد بين مؤيد لها ومعارض لها ولكل فريق مبرراته ومسوغاته. المهم هو أنه أصبح له وضوح اجتماعي و إعلامي قوي وأخذ مكانه في الفضاء الجامعي، وهي تندرج في سياق الانتشار الواسع لتكنولوجيات الإعلام والاتصال. والرهان حاليا لا يتعلق بإدخال هذه التكنولوجيات من عدم إدخالها، بل يتعلق بكيفية " رأب الفجوة الرقمية"14 بين الدول المتطورة والدول النامية.

خاتمة

مهما كانت المواقف_ المؤيدة أم المعارضة_ التي قد تصدر حول تكنولوجيات الإعلام و الاتصال في فضاء التعليم العالي فهذا أصبح واقعا سوسيولوجيا، يتعين أن نفهم خصائصه ومميزاته ومنطق سيره و سيرورته. هل هذا التعليم الالكتروني أو التعليم عن بعد أصبح مطلبا اجتماعيا أو ضرورة مؤسساتية تفرضها وجهات النظر الاقتصادية التي تسعى إلى تحقيق العقلانية المالية أساسا من خلال سياسات ترشيد النفقات العمومية التي مست التعليم الجامعي والبحث العلمي كذلك ؟ ومن جهة أخرى، هل تكون الوعي الحاد في المجتمع الجزائري بأهمية تعميم استعمال التعليم الإلكتروني في الجامعة الجزائرية، من اجل تخفيض الضغوط المتنوعة التي أصبحت ترافق كل المواسم الجامعية ؟ لكن، يتعين على من يعود على عاتقهم إرساء قواعد هذا النوع من التعليم ألا يسقطوا في نوع من موضة التقليد ،انطلاقا من فكرة أن مجتمعات أخرى لجأت إلى هذا النوع من التعليم، فيجب علينا نحن كذلك أن نفعل مثلهم ونحذو حذوهم، من دون التوقف عند الحاجيات الفعلية لمجتمعنا. إن ما يمكن أن نشير إليه هو أن الجزائر تبذل جهدا هاما من أجل نشر الواقع الالكتروني في قطاعات عديدة ومتنوعة. لكن الوعي الإلكتروني الاجتماعي لم يترسخ بعد في تمثلات أفراد المجتمع الجزائري التي لا تزال في اطر ما قبل العصرنة الإلكترونية، حتى وان كانت الوسائط التقنية تعرف مستوى استهلاك اجتماعي متنام،لكن لا يزال الجانب الترفيهي يحتل صدارة التعاطي لهذه الوسائط. والرهان هو ترسيخ ثقافة إلكترونية في المجتمع، وهذا بدوره سيساهم في دفع حركية التعليم العالي عن بعد!

قائمة المراجع

1 - Rouissi Soufiane, Portes Lidwine, Stulic Ana, « Les dispositifs numériques pour les langues, littératures et civilisations étrangères : horizon et perspectives », in Dispositifs numériques pour l'enseignement à l'université, sous la direction de Rouissi Soufiane, Portes Lidwine, Stulic Ana, Paris, L'Harmattan, 2017, p. 9.

2 – الدكتور رحومة علي محمد، الانترنت والمنظومة التكنو- اجتماعية. بحث تحليلي في الآلية التقنية للانترنت ونمذجة منظومتها الاجتماعية، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه (53) ، 2005، ص. 207.

3- نفس المرجع، ص. 24.

4- نفس المرجع، ص. 193.

5 -Laroussi Mona, « E. Learning 2.0 virage, ou mirage », in Tic et éducation en Afrique. Applications, recherches et perspectives, sous la direction de Ben Henda Mokhtar, Tonye Emmanuel, Paris, L'Harmattan, 2011, p. 57-59.

6 - Ibid., p. 63

7 – رحومة علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص. 193-194.

8-نفس المرجع، ص. 199.

9 - Gastellec Gaele, « Les mutations de l'enseignement supérieur en Europe. Comprendre les transformations à l'oeuvre », in La pédagogie universitaire à l'heure du numérique. Questionnement et éclairage de la recherche, sous la direction de Lameul Geneviève , Loisy Catherine , Louvain La Neuve, De Boeck supérieur ,2014, p.60.

10-رحومة محمد علي، مرجع سبق ذكره، ص. 198-199.

11 – نفس المرجع، ص. 199.

12 - Attenoukon Serge Armel, Tic, motivation et rendement académique. Quels liens en contexte africain ?, Paris, L'Harmattan, 2015, p. 71.

13 - Ibid., p. 74-75.

14- صايم سميرة ، "تحولات تكنولوجيا المعلومات والتواصل في العالم العربي في رأب الفجوة الرقمية"، مقاليد. العربية والانترنت، الملحقية الثقافية السعودية في فرنسا، العدد 11، مارس 2016، ص. 194.